أسس التربية الاجتماعية في الإسلام

الدكتور محمد الشاذلي النيفر
عميد كلية الشريعة وأصول الدين
الجامعة التونسية

التربية الاجتماعية فى الاسلام

امتاز الاسلام بأنه يغوص فى الحقائق مستخرجا منها ما يسنه من مبادىء حتى تتركز تلك المبادىء على أصول ثابتة ، وبذلك تكون محددة فى كل ما ترمى اليه .

فمبادئه من أجل الناحية الخاصة المتازة بها أخذت فى اتجاه له أثره فى كل شىء مما ترفع به عن غيره ، ومن جرائها عم الاسلام الكثير من أقطار المعمورة لما لها من تأثير عميق .

وأول ما تهتم به المبادىء الاسلامية . . الانسان ، فهو محور الوجود ، وجميع ما فى الكائنات مهيأ لأن يستفيد منه الانسان اذا عرف كيف يستفيد منه .

واظهارا لمركز الانسان عند مبدأ الخليقة أظهره الله فى مظهر السمو والمكانة كما قال جل اسمه :

" واذ قال ربك للملائكة : انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ، قال : انى أعلم مالا تعلمون " (سورة البقرة آية ٣٠) .

أظهرت الآية الكريمة تعظيم الله تعالى للذى سيخلفه اذ بشر به الملائكة سكان ملكوته ، ولقبه بالخليفة قبل خلقه ، ونوه بشأنه وأبدى فضله .

وفى ابداء فضله ساق معه ما فيه من المفاسد التى جرت على لسان سكان الملكوت اذ قالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) .

لكنه أبدى لهم أن مفاسد بعض بنى الانسان يغلب عليها ما فيه من فضائل . فالخير الكثير لا يترك لأجل الشر .

وأراهم هذا فى قوله :

" انى أعلم ما لا تعلمون " .

يفيد تذكير بنى الانسان بأنهم منحدرون ، فمن أنعم الله عليه أن ذريته كلهـا بدون استثناء يعمهم الانعام الأبوى ، فهم من ذرية من جعله الله خليفة فى أرضه وبشر به ملائكته وعرفهم مزيته .

وبعد البشارة حين تم الخلق أعلى منزلته بأمره ملائكته بالسجود له ،

" وإذ قلنا للملائكة أسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان مـــن الكافرين " (سورة البقرة آية ٣٤) .

جاء أمره تعالى بالسجود لأول انسان ابداء لتشريفه وتحيته تحية التعظـــيم والاكبار .

وأضاف الى تعظيم الانسان حين مبدأ الخلق أمر آخر له وزنه فى الحياة الانسانية وهو المشاورة .

واجتمع الأمران حين مبدأ الخلق اشارة الى أن الانسانية الصحيحة مبنية عـــلى أمرين ضروريين فى اقامة الحياة الانسانية وعليهما تتركز التربية الاجتماعية ، أحدهمـــا أن احترام الانسان انساق اليه من نفسه وذلك لكونه انسانا لأنه فى مبدأ أمره اسنـــدت اليه وظيفته وهى الخلافة فى الأرض فكل فرد من أفراد الانسان له اكرامه ، وتفضيله مـــن الله فحظه فى الحياة مبنى على الاكرام والتفضيل .

وجاء تأكيدا لذلك قوله تعالى :

" ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبـــات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا " (سورة الاسراء آية ٧٠) .

فيجب أن تكرم الانسانية فى الانسان فلا يهان ولا يرغم فتترك له حريته وطموحـــه فى الحدود التى لا تضر بالغير .

واكرام الانسانية للانسان ليس مقصورا على الغير للغير ، وانما الانسان يكرم نفسه فلا يذلها ولا يتدلى بها فى سفاسف الأمور وما لا يجدى ، وما يحط به وهو ما شرحه النبى صلى الله عليه وسلم فيما جاء عن سهل بن سعد أن النبى صلى الله عليه وسلـــم قال :

ان الله تعالى يحب معالى الأخلاق ، ويكره سفسافها.(١)

وفيما جاء عن الحسن بن على رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى يحب معالى الأمور واشرافها ، ويكره سفسافها.(٢)

شرح الحديثان ، ما افادته الآية الكريمة من تكريم الانسان ، وأرشدا الى تربية النفوس على معالى الأمور التى ترتفع بالنفس الانسانية اجتماعيا ، وتدعوها الى اصلاحها حتى يبنى الباني حياته على معالى الأمور واشرافها .

كما أرشد الحديثان الى التحذير من سفساف الأمور وحقراتها ورديئها من الرذائل والدنايا ، واهانة النفس وعدم اعزازها لا بالتيه ، وانما بالترفع بها دون الدفع بها فى المحقرات وأبعادها عن كل ما يثلم الشرف الحقيقى دون الشرف الوهمى الذى وقع فيه الكثير ممن يعتمد على الحسب وما شابهه .

ومن الدعوة الى حفظ كرامة الانسان نفسه ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

"ان الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده".(٣)

ولا ظهار أثر النعمة على العبد أن يسعى الانسان فى تحسين مظهره ليكون المجتمع مجتمعا راقيا فى مظاهر أصحابه حتى ترى أثر الجدة والنعمة فى الزى .

وانما ربى الاسلام أهل المجتمع على الظهور بالمظهر الذى تبدو فيه الجدة فى الزى من أجل أن ترتفع النفوس فان المظهر له تأثير على النفس لتترفع عن الدنايا ، وهو ما نراه من كون الانسان الكريم المنظر انه يسعى فيما يعينه على المحافظة على الكرامة .

وللمحافظة على الاكتمال المظهرى أرانا الاسلام ما هى مكانة الذى لا يتعهد بدنه ولا ثيابه من الوسخ .

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك على الصحيحين .
(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير .
(٣) رواه الترمذى فى جامعه ، والحاكم فى مستدركه على الصحيحين .

فانها مكانة البغض من الله والمبغوض مقصى ، فعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

"ان الله يبغض الوسخ والشعث"(١).

وأبغض تعالى الوسخ والشعث لكونه تعالى يحب النظافة المعنوية ، وكذلك الحسية ، ويحب من الخلق التخلق بها ويكره ضدها .

والوساخة تتكون من عدم تعهد الثوب والبدن ، أو من قلة ذلك .

ولا يعارض هذا ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم مما رواه أبو هريرة رضى الله تعالى عنه :

ان الله تعالى يحب المؤمن المبتذل الذى لا يبالى ما لبس(٢).

لأن المراد بهذا الحديث ترك التزين والمباهاة باللباس من أجل التواضع ، وشتان ما بين الوساخة والتواضع فى الثياب .

ومن كرامة الانسان لنفسه أن يصونها بالعمل ، فان الاستجداء يتدلى بصاحبه ويذهب بهيبته وينحط به الى الحضيض النفسى .

وتحبيبا للعمل الصائن للنفس أحب الله أهل العمل ليرغب فيه ، ويدعو اليه كما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رواه عنه ابن عمر رضى الله عنه :

"ان الله يحب العبد المؤمن المحترف"(٣)

قرر هذا الحديث قاعدة فى الاسلام هى أن كرامة الانسان تدعوه لأن يعمل لا أن يترك العمل ، وهو ما ابتلى به بعض المسلمين فى العصور التى لم يبق فيها من الاسلام الا قليل القليل حين أعرض الناس عن تفهم الاسلام التفهم الصحيح وهم منقسمون بين جاهل بالاسلام جهلا كليا وبين واقف على مالا يكفى منه ، وانما تعلق بالبعض اليسير .

---

(١) البيهقى فى شعب الايمان .
(٢) البيهقى فى شعب الايمان .
(٣) رواه الحكيم الترمذى والطبرانى فى الكبير ، والبيهقى فى الشعب ، ولهذا الحديث شواهد .

والقسم الأول هو ما كانت عليه أكثرية المسلمين وعامتهم حتى صار من المعروف أن لفظ العامي اذا أطلق أريد به الأمي الجاهل بكل شيء البعيد عن المعرفة الشبيه بالحيوان وانما يفترق عنه بشيء جزئي لا يكاد يذكر .

وعلى هذه الصفة كانت تعيش الكثرة ، بل الكل فيهم كحيوانات سائمة ، ولهذا تفشى فيهم الكثير من الموبقات وانتشرت بينهم عوائد هي من أقبح العوائد والكثير منها مما لا يقبله العقل ولا يرتضيه ولو كان من أبسط العقول فترى الواحد يعد من الكرامة أنه لا يرى أحفاده في يد أبيهم أو أمهم لأن ذلك يتصل بالناحية الجنسية مع أنه لا يرى غضاضة في أكل أموال الناس وسرقتها حتى عدت السرقة أكثرية الذين يعيشون على البداوة مما ذهب معه الأمن حتى في أطهر البقاع وأقدسها الى عهد قريب .

ومما سرى في أكثريتهم البطالة والكسل والقعود عن العمل كأن ذلك مفتاح الدنيا والآخرة واذا احتاج الى شيء فباب السرقة مفتوح يلجه متى شاء حتى تغنى به بعضهم ورآه من تمام الكرامة والرجولية ، والقرية التي تأكل أموال الناس بالباطل هي التي تعد من مقدمات القرى لأن أهلها لهم القوة والرجولة في الاستجواز على ما للغير ، ولا يظنون أن ذلك مما تشدد فيه الشرع الكريم حتى أوجب قطع اليد للذي يتسلط على أموال الناس .

فالجاهلية العمياء تسربت من جديد الى نفوس هؤلاء فأصبحوا بها آخذين بائسين عليها حياتهم .

وأدى الى انقلاب حقائق الاسلام في عقول هؤلاء الأقوام الذين ابتعدوا عن المعرفة هو أن النفوذ الماسك بزمام الأمور لم يعط أية عناية الى نشر المعرفة وانما همه هو ارضاء الحاكم الذي بيده الأمر ، فالأموال المجموعة من الزكاة وغيرها والأموال التي تؤخذ بالباطل مؤداها الى جيوب وبطون الماسكين بزمام الأمور ، كل يأخذ منها ما قدر عليه مع اغفال نشر أسباب المعرفة والتقدم .

والقسم الثاني : كانوا يأنفون من الأعمال ، وخاصة اليدوية والحرف ، وهم العديد من سكان المدن ، فكانوا يتعلقون بما هو من أسباب الكسل من الاعتماد على غلات

الكثريات ، ولا يكلفون أنفسهم الأعمال ظنا منهم أن ذلك هو الشرف .

ولهذا غصت المقاهي ، وما شابهها بالحلاس حتى أصبحت دكاكين التجارة نوادي يقضي فيها الكثير أوقاتهم ، فلم يكفهم السمر بالليل حتى أضافوا له السمر بالنهار .

وفي العصر الأخير أقبلت النخبة على الوظائف مما أثقل موازين الدول ، حتى أصبحت تئن مما تتحمله من أثقال لكثرة الموظفين ، وفيهم من لا يصنع شيئا ، ولا يفيد وانما همه انه يتناول الجراية ، فهي نصب العناية .

وفي بعض الدول استغل أعمالها ، ودواليبها الوافدون عليها اتكالا على اليد الوافدة ، لأن غيرها لا تريد العمل ، وتعد خيرا منه الكسل .

ومن أجل تجنب النخبة للعمل أن الصنائع وقفت عند حد التقليد فلا تجد من يجهد فكره ، ولا نفسه للخروج مما عند الغير ، فأصبحنا في تقدمنا قانعين بما يسمح به الغرب من صنائع محدودة هي في الحقيقة مظاهر .

بينما في استطاعتنا أن نقدم للبشرية مثل ما قدمه غيرنا لكوننا لا نقل عنهم مدارك ولا استعدادا اذ نبوغنا لو تعاهدناه لا يقل عن نبوغ غيرنا .

وانما نحن في حاجة الى أن نرفع عن أنفسنا أوهاما كونتها العصور المظلمة .

وتتحلى الأنفة من الأعمال فيما نحياه ونعيشه ، فبين أيدينا نماذج متعددة متنوعة تملأ جونا العائشين فيه .

وهي أنفة قديمة متوارثة ونجد من جذورها فيما حكاه الوصابي (١) .

" فاني لما رأيت أهل بلدتنا هذه في الكد مجتهدين ، وعلى الاشتغال بالحرف معتمدين ، مواظبين على ذلك معتقدين .

وصاروا اذا رأوا أهل الرفاهية في البلدان وراحة الرجال فيها والنسوان ، استنقصوا أحوالهم ، وازدروا أفعالهم ظنا منهم بأن الدعة والسكون ، أمر فاضل مسنون .

---

(١) بفتح الواو والصاد مع التخفيف نسبة الى وصاب وهو جبل باليمن يحاذي زبيد .

كأنهم لم يبلغهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
" ان الله لا يحب الفارغ الصحيح ، لا في عمل الدنيا ولا في عمل الآخرة)

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(أشد الناس حسابا يوم القيامة المكفي الفارغ)(١)

صور الوصابي صورة من صور مجتمعاتنا في القرن الثامن الهجري توضح أن الكثرة في فراغ من الأعمال ما حبب الى القلة العاملة أن تترك الأعمال لما تراه من فراغ الكثرة .

الشـــاورة :

الأمر الثاني مما تدل عليه الآية الكريمة المشاورة فالله تعالى الغني عن العـــالمين والمشير شاور الملائكة حين تعلقت قدرته بخلق آدم عليه السلام لابداء أن المشاورة ضرورية في الحياة الانسانية .

فالديمقراطية للانسان ضرورية له في شئونه كلها دون تفرقه بين شأن وشأن .

والمشاورة ليست وقفا على الحياة السياسية ، فكما هي في الحياة السياسية هـــي أيضا في غيرها فالآية الكريمة التي ركزت المشاورة قبل خلق الانسان تدعوه الى أن يشاور في شئونه كلها لأن مبدأ خلقه قائم على المشاورة .

فأخذ الرأي في كل ما يهم ضرورة لأن تتلاءم فيه الآراء حتى تأخذ أحوال المجتمع رأيا صالحا لأن احتكاك الأفكار وتلاقح الآراء يقيما لمصالح على الوجه الذي يتطلبـــه المجتمع الصالح .

فالتلاقح الفكري والشعوري بين أفراد الانسان على قضاء حقوق المجتمع لا يستأثر بـه أحد دون أحد اذ هو موزع على أبناء الأمة بأسرها ويتوزع الأفراد ما هو من المهـــام الاجتماعية كل بحسب ما يستطيع في دائرة امكانه .

---

(١) الذي في مسند الفردوس عن أنس رضي الله عنه أشد عذابا يوم القيامة المكفر الفارغ .

الشورى الاجتماعية :

والشورى التى ربى عليها الاسلام المسلمين ذات فرعين أساسيين : أولهما - الشورى الاجتماعية بجعل المسلمين هيكلا اجتماعيا متراصا يحس باحساس واحد ، ويتشارك فى السراء والضراء ، فلابد من تبادل الآراء ، والتعاون فى كل ما يقوم عليه المجتمع فصور الاسلام المسلمين كتلة متناسقة متبادلة فى شعورها ، متبادلة فى احساسها .

وأبرز الهيكل الاسلامى الاجتماعى قوله صلى الله عليه وسلم كما رواه النعمان بن بشير رضى الله عنه :

(مثل المؤمنين فى توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم ، مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)(١) .

أبرز الحديث المتقدم المؤمنين فى صورة الجسد الواحد الانسانى الذى احساسه مشترك فلا يتغاضى بعض عن بعض ولو أراد أن يتناساه لأنه ان سرى فيه ألم عم الجسد كله ، وكذلك اهتزازه بالفرح يعم الجميع .

وهو معنى ضرورى فى الحياة لا يمكن بدونه أن تعيش مجموعة انسانية ، فقوله صلى الله عليه وسلم المبرز للوحدة الهيكلية الانسانية مبرز لكيفية الحياة الصالحة المتلائمة فى أفرادها .

وليس الحديث اخبارا مجردا ، وتصويرا فحسب ، وانما هو أمر فكما ان الرجل اذا تألم بعض جسده سرى ذلك الألم الى جميع الجسد فالمؤمنون مأمورون أن يجعلوا تعايشهم تعايش الرجل الواحد ليكونوا كرجل واحد لا يفرق بينهم فارق .

والأمر بأن يكونوا كرجل واحد من أجل أن يكون التعاون بينهم مشمولا لهم داخلا فى ضرورياتهم فكما يحافظون على خاصتهم ، يحافظون كذلك على عامتهم .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه (جـ ٤ ص ١٩٩٩) .

فمهما حل بهم أمر تعاونوا على ازالته وتساندوا فى رفعه عنهم وان حاءت مسرة لم يستأثر بها أحد دون آخر .

. . . . . .

ولا يتحقق التكامل البشرى والتعايش التكافلى الا اذا تحققت الشورى الاجتماعية كى يعم الشعور الموحد كل الأفراد وكى يسرى الاحساس فيهم جميعا دون أن يكون مقصورا على أفراد دون آخرين .

ونجد الشورى الاجتماعية فيما ربانا عليه الاسلام من القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وحرضتنا عليه الشريعة الحكيمة .

وقد نبهنا الكتاب الكريم الى التربية الاسلامية الصحيحة المؤسسة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى صور مختلفة تعطى المعنى المراد بأوجه كثيرة كما حاء فى آيات متعددة من سور عديدة .

وتتجلى قيمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر انها برزت فى خصوصيات الرسالة الاسلامية المحمدية التى حاءت فى وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حاء وصفه فى التوراة والانجيل .

فنعوته صلى الله عليه وسلم منها انه أثبتت رسالته فى التوراة والانجيل ومنها انه نبى أمى يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، قال تعالى : "ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ، ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون" (سورة الاعراف آية ١٥٦) .

"الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم أصرهم والأغلال التى كانت عليهم" (سورة الأعراف آية ١٥٧) .

أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم حسبما تلاها الله تعالى علينا - تسعة - وهي الأوصاف التي وصفه بها تعالى ومنها أنه يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر .

وجاء قوله ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر بعد قوله الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل للدلالة على انه من وصف النبي المذكور في التوراة والانجيل .

وهو تفسير لما كتب من ذكره فيهما ، ويحتمل غير ذلك .

.. .. ..

* أمر الأمة بالشورى الاجتماعية :

أقام الاسلام الشورى الاجتماعية بين المسلمين على وجه لا يمكن اغفاله ولا التهاون به لما لها من تأثير على الحياة المثبتة لدعائم الاسلام واقامتها أعلنها في صورة الأمر في قوله تعالى :

" ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون " (سورة آل عمران آية ١٠٤) .

فان الله تعالى عاب في الآيات السابقة على هذه الآية الكريمة على الكافرين أمرين الكفر والصد عن الايمان ، وهو الأمر بالمنكر فلم يكتف هؤلاء بكونهم ضالين بل كانوا مضلين .

وبعد ذلك أمر المسلمين بأن لا يكونوا مثل هؤلاء ضالين ومضلين بأن أمرهم بأن يكونوا راشدين في أنفسهم مرشدين لغيرهم هادين قائمين بالهداية وخاطبهم قائلا : (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) ، فالله جل جلاله يأمر الأمة الاسلامية بأن تكون أمة دعاة إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر .

وهو أمر لكل مكلف ، ويستفاد ذلك علاوة على هذه الآية من آية أخرى وهي التي ميز الله تعالى فيها الأمة الاسلامية بأن من خصائصها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

" كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر " (سورة آل عمران آية ١١٥) .

والأمر وان كان عاما لجميع المسلمين الا أنه اذا قام به البعض سقط عن الباقين لأن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من قبيل انقاذ الغرقى فكما أن انقاذ الغرقى اذا قام به من قام ووقع الانقاذ فان الباقين سقط عنهم الطلب لأن المقصود حصل .

كذلك في صورة انقاذ الهالكين من الهلاك لأنه اذا وقع الانقاذ من الكفر والفساد سقط الطلب عن الباقين لحصول المقصود .

فالانقاذ انقاذان انقاذ حسي وانقاذ معنوي ، والنهي عن المنكر من الانقاذ المعنوي ، وهو والانقاذ الحسي ضروريان للحياة .

. . . .

من أسباب تحاشي الانهيار :

ان الله تعالى جده أوجب الشورى الاجتماعية تفاديا مما أثبته الواقع فيمن تركوا الشورى ومما رآه ابن خلدون من الحتميات لانهيار الحكومات والأمم اذا وصلت الى سن الشيخوخة لأن تلك الخواتم لا تكون اذا كانت هناك الشورى الاجتماعية فانها مرهم يحافظ على شباب الأمة ويبقى لها قوتها لأن الانهيار كما يذكره ابن خلدون في الجيل الثالث ومن دواعيه انهم ينسون البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته لما تبنقوه (١) من النعيم وغضارة العيش فيصيرون عيالا على الدولة ، ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ويلبسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل ، وحسن الثقافة ويموهون بها . وهي في الأكثر أحسن

---

(١) تبنق : جود الشيء وجمعه وهي من لغة ابن خلدون .

من النسوان على ظهورها -أى الخيل - ، فاذا جاء الطالب لهم لم يقاوموا مدافعته فيحتاج صاحب الدولة الى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة ويستكثر بالموالى ويصطنع من يغنى عن الدولة بعض الغناء ، حتى يتأذن الله بانقراضها ، فتذهب الدولة لما حملت فهذه كما تراه ثلاثة أجيال يكون هرم الدولة وتخلفها (١) .

وللحفاظ على أسباب القوة التى يراها ابن خلدون فى العصبية وهى فى الحقيقة (قوة الايمان) تجب العناية بقوة ايمان الأمة وذلك اذا شذب عن هذا الايمان المناكر ، وغذى بالمعروف الذى جاءه فى أوامر الله سبحانه وتعالى .

وتأكيدا لهذه الشورى الاجتماعية وتحذيرا من مغبة اهمالها أخبر الله ان الذين ضلوا من قبل واضلوا كثيرا ، وضلوا عن سواء السبيل ، حتى حقت عليهم اللعنة وأصبحوا مشردين فى الأرض طوال قرون تتقاذفهم البلدان ، وترى بهم الأمم خوفا من عدواهم وشرورهم تسبب لهم فى ذلك عدوانهم وانهم اهملوا القيام بتلك الشورى فقال عز من قائل " كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون " (سورة المائدة آية ٧٩) . فالاسلام ربى المسلمين على أن لا يغضوا الطرف عن كل ما هو مؤد الى انهيار الأمم والى تلك الحتمية التى سببها التغافل عن انتشار المناكر أشار الاسلام محذرا من الترف لأنه من دواعى المناكر التى نهانا الله عنها والى ذلك يشير قوله تعالى : " انهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم" (سورة الواقعة الآيتان ٤٥ ، ٤٦) .

فالترف وجانبة الاقتصاد فى الحياة يؤديان الى الاصرار على المناكر والاصرار عليها نتيجة حتمية الى الهرم والتخلف ، ودواء ذلك التذكير بالاقلاع عن كل ما هو مؤد الى ذلك .

.. .. ..

---

(١) المقدمة ص ٢٠٥ .

العطف الى الحق :

وضحت السنة النبوية أسباب الوهن في الأمم السابقة ومن أين دخل لهم النقص في الحديث الذى رواه عبد الله بن مسعود رضى الله عنه :

" ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

ان أول ما دخل النقص على بنى اسرائيل : انه كان الرجل يلقى الرجل فيقول له : ياهذا اتق الله ودع ما تصنع ، فانه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض. ثم قال : (لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم " - الى قوله : (فاسقون) (المائدة الآيات ٧٨ - (٨١) ثم قال : كلا والله ، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق اطرا أو لتقصرنه على الحق قصرا" .

زاد فى رواية :" أو ليضربن الله بقلوب بعضكم بعضا ثم ليلعننكم كما لعنهم" .
هذه رواية أبى داود .

ورواية الترمذى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما وقعت بنو اسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم فى مجالسهم وآكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان متكئا فقال : " لا " والذى نفسى بيده حتى تاطروهم على الحق اطرا.(١)

. . . .

هذا تحذير صارخ فتح أعيننا عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو أننا نبصر حتميتين حتمية المحافظة على المقومات الصحيحة والتفريط فيها والأخذ فى أسباب الردايات .

---

(١) جامع الأصول (جـ ١ ص ٣٢٧) .

فان أطرنا الضالين[١] وعطفناهم وردناهم الى الحق الذى خالفوه ولا فرق فى ذلك بين فرد وفرد وبين شخص وآخر ضمنا لأنفسنا الاستمرار فى القوة والتمكن من أسباب الحياة الصحيحة .

وان أغفلنا ذلك أخذت أسباب التخلف والوهن والنقص تشخر فى الجسم حتى تصل الحال اما الى الانقراض واما الى الوهن والتناقض الشبيه بالموت .

تحذير من أبى بكر :

روى قيس بن أبى حازم رضى الله عنه ، قال : قال أبو بكر بعد أن حمد الله وأثنى عليه : " يا أيها الناس انكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير موضعها (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) (سورة المائدة آية ١٠٥) .

وانا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب

وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى ، ثم يقدرون على أن يغيروا ولا يغيرون ، ألا يوشك أن يعمهم الله بعقاب "[٢]

موقفنا الحاضر :

أعطى عصرنا الحاضر للشورى الاجتماعية وسائل جديدة لو تستغل لأفادت أيما افادة كبرى وذلك فى وسائل الاعلام المتنوعة . ولا يتم ذلك الا اذا أخذت وسائل الاعلام من صحافة ، واذاعة وتلفزة فى المنهج الذى يجب عليها أن تقوم به .

كم تكون الفائدة جلى لو أن هذه الوسائل التى تصل الى كل الآذان ، وتدخل كل بيت ، وتعايش الناس معايشة من يلازمهم فى جميع أحوالهم لا يفارقهم فى سفرهم ، وحتى فى غيره .

---

(١) أطره : عطفه ومثله أطره بالتخفيف .

(٢) جامع الأصول : جـ ١ ص ٣٣٠ .

وبذلك نستطيع أن نقدم للمجتمع خدمات تربوية اجتماعية تغرس فيهم هذه التربية الاجتماعية الاسلامية .

فعوض أن نجعل من هذه الوسائل أن تكون ملهاة نجعل منها أصواتا للاصلاح وبذل النصيحة بدافع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحقيقا للشورى الاجتماعية التي يجد فيها المواطن اصلاحه ويجد فيها من يشير له سبيل الرشد ويحذره من سبل الغواية .

وحينئذ تربأ الوسائل المذكورة عن كونها وسائل ثانوية في حياة المجتمعات اذ تصبح بسبب ما تسديه في المقدمة لقيادة الأمم والخروج بها من تلك الحتمية المضيعة على الناس شجاعتهم ، وعرفانهم وجديتهم وأحقية الاعتماد عليهم .

وتتحقق الغاية المنشودة للفلاسفة في ايجاد المدينة الفاضلة ، تلك المدينة التي تحققت في عصور الاسلام الذهبية ولكنها ضعفت شيئا فشيئا الى أن فقدت مكانتها التي كانت لها في العصور الغابرة .

الشورى السياسية :

قرن الاسلام الدين الحنيف بين الشورى الاجتماعية المتقدمة وبين الشورى السياسية ولم يهمل ما يحقق وجودهما ويبرزهما في صورتيهما الصالحتين واذا كانت الشورى الأولى تقوم عليها المحافظة على شباب الأمم حتى لا يدخلها الهرم فكذلك الشورى السياسية ، فلها ما للأولى وزيادة .

وتفيد الآية المصدر بها أصل الشورى بفرعيها فانه تعالى حين تعلقت قدرته بايجاد الخليفة خاطب الملائكة بقوله : (اني جاعل في الأرض خليفة) ولم يمتنع الملائكة المخلوقون أن يقولوا ، وبدوا ما في أنفسهم من تخوفات من هذا المخلوق الجديد .. (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) .

فالشورى من أهم ما بني عليه هذا الكون لأنه في أصل وجود العنصر الذي سيقوم بالخلافة خاطب الله جل جلاله ملائكته ، وأبدوا هم من جهتهم ما يتخوفونه من الافساد وسفك الدماء .

الرسول والشورى :

منح الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم كل أسباب رجاحة العقل والتسديد في اقامة المهمات ، والتكفل بالرشاد ، ومع كل ما ذكر أمره بالشورى في قوله :

" فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين " (سورة آل عمران الآية ١٥٩) .

جمعت الآية الكريمة ما يكون عليه السائس من أنه يتألف القلوب ويجمعها حوله .

وفي الطالعة استجماع القلوب بالمشاورة التي لها فوائد تربوية اجتماعية . فهي أولا تجعل المستشار يحس بعلو الشأن ورفع الدرجة ، والاحساس المذكور يقوى الروابط بين أفراد الأمة سواء في ذلك السائسون ، والمسوسون ، ففيه تربية على شعور الانسان بالاعتزاز دون أن يرى نفسه منحطة ، وهو ما تدلى بكثير من الشعوب التي أصبحت ترى نفسها سوائم ناطقة باللسان لا انها ناطقة بمعنى انها مفكرة بالقوة ، بسبب رؤية النفس الانحطاط .

وهو ما نقاسيه اليوم وهو ما ظهر في كثير من الوقائع الدالة على تدلي المستوى المترفع بالانسان كانسان .

وهو ما أدى الى الانتفاضات لأنه اذا شعر الانسان بالاهانة وعدم تشريكه في شئون حياته أداه شعوره الى الالتواء في الحياة ، وسحبة الانتفاض والتسور على ما يحتاج الى قيم عالية مع أنها في المتسورين .

وثانيا ، ان أمره صلى الله عليه وسلم مع تناهيه في المدارك واستجماعه لكل ما يؤهله الى المقام الأسمى الذي ليس وراءه مرمى يدل على أن الانسان بلغ ما بلغ في الكمال فانه يحتاج الى غيره لأنه يكون عند الغير من الآراء ما ليس عنده بلغ ما بلغ من السمو العقلي وسداد الرأي .

ولابراز هذا المعنى ما جاء في غزوة بدر فانه عليه الصلاة والسلام لما نزل أدنى ماء من بدر .

قال له ، الحباب بن المنذر بن الجموح : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا ان نتقدمه ، ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

فقال : يارسول الله ، فان هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما وراءه من القلب ثم يبنى عليه حوضا فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس فسار حتى اذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ثم أمر بالقلب فغورت وبنى حوضا على القليب ، فملئ ماء ، ثم قذفوا فيه الآنية (١) .

أبان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن ما يخطر على البال ليس وقفا على من تبوأ مكانته الحساسة بل هو أمر يخطر على بال دون بال فاذا ما تبودل الرأى بين الناس نتج عن ذلك من الرأى ما هو مدعاة الفوز والصلاح والنجاح .

فلهذا قال الرسول لقد أشرت بالرأى .

وقد أعطته اشارته الى النبى منزلة ومكانة فأصبح يقال له ذو الرأى . ومات الحباب بن المنذر فى خلافة عمر بن الخطاب .

ومن مكارم أخلاقه صلى الله عليه وسلم أنه يتقبل الرأى ولا يكتفى بتقبله ، بل يزيد على ذلك أنه يرفع من مكانة من أشار بالرأى الصواب .

.. .. ..

وبناء الأمور على المشاورة يفتح باب الاجتهاد والابتكار لأنه اذا وقعت المشاورة اجتهد الناس فى ابداء الرأى وبذلوا الوسع فى الوصول الى الصواب توصلا الى ادراك وجوه المصالح .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٧٢ .

يقول الامام الرازى ان فى الاجتماع يستخرج الوجه الأصلح ، وتبدو الحقائق ومن هناك كان اجتماع المصلين عند صلاة الجماعة لأن فى ذلك تطابق الأرواح ، وتلاحق الأفكار وبذلك يحصل الوجه الأصلح (١) .

فالمصلون لو أنهم صرفوا اجتماعهم الى تبادل الرأى وتطلب الوجه الأصلح لحافظ المجتمع الاسلامى على شبابه ولم يلحقه ما لحقه فى عصور التقهقر والتخلف .

.. .. ..

ظهور القيم :

لا يظهر حال الأفراد الا اذا اتسع الميدان لابداء الفكر ، فانه فى اتساعه تعلم مقادير الرجال ، ويبدو من هو الأصلح للاضطلاع بالأمور ، ومن هو محدود التفكير ذو درجة لا تتجاوز بسائط الأمور .

فحين تتبلور القيم ، ويظهر المجيد ، ويمتاز عن غيره يمكن اسناد المهمات للأكفاء اما قبل اختبار المقول ومعرفة القوى من الضعيف فلا يتم ذلك وبذلك فى عصور الاسلام اللامعة التى أخذ فيها المسلمون بالمبادىء الاسلامية من غير التواء ، ولا حيدة عن منهجها الواضح البين كان المضطلعون بالمهام من ذوى الكفاءات فولاة المسلمين كانوا مثالا يحتذى فى سير الولاية لأن المجتمع نقدهم بسبب حرية الرأى التى كان عليها المسلمون فهم فى ابداء آرائهم لا يخشون شيئا فى ابدائها فبرز الذين تعتمد عليهم الأمة الاسلامية فى ادارة شئونها وتسيير دفة أمورها .

فظهر أمثال خالد بن الوليد سيف الله ، وأبى عبيدة ابن الجراح ، وعمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص ، ممن كانوا أحق بالتقدم وقيادة الجيوش . . . . فالكفاءات الميدان أمامها مفتوح تصل الى ما يزيدها كل يوم أن تبدى من قيمتها ما هو فى ترجيح كفة ميزانها .

---

(١) تفسير الفخر جـ ٩ ص ٦٩ .

التربية على الشورى :

اتصف أبوبكر الصديق بصفات تؤهله للخلافة النبوية ويكفيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى حقه : (أبوبكر الصديق خير الناس الا ان يكون نبى)(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم :
(ان روح القدس جبريل أخبرنى أن خير أمتك بعدك أبوبكر الصديق)(٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم :
(أرحم أمتى بأمتى أبوبكر)(٣)

فهذه الأحاديث صريحة فى أن المرشح للخلافة بعد النبى المصطفى أبوبكر ، ومع ذلك لم يعينه للخلافة وما ذاك الا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد ها أن تكون شورى بعده .

وقد صرح النبى صلى الله عليه وسلم بأن الامارة على الأمة موكولة الى الشورى ، عن على كرم الله وجهه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
(لو كنت مؤمرا على أمتى أحدا من غير مشورة منهم لأمرت عليهم ابن أم عبد)(٤) .

يذكر أنه لو كان جاعلا أحدا أميرا من غير مشورة من الأمة لأمر عليهم ابن أم عبد ، وهو عبد الله بن مسعود صاحب النعل .

فمعناه أن ابن أم عبد لم يعينه لأجل أن المشورة لم تقع فيفيد أن المشورة مطلوبة فى ذلك .

وانما رشحه عليه الصلاة والسلام لجودة رأيه ، وحسن تدبيره .

---

(١) أخرجه الطبرانى عن سلمة بن الأكوع .
(٢) أخرجه الطبرانى فى الأوسط عن سعد بن زرارة .
(٣) رواه أحمد والترمذى عن أنس بن مالك .
(٤) أخرجه أحمد ، والترمذى ، وابن ماجه ، والحاكم فى المستدرك .

وترك أمر الخلافة للشورى انما هو لتعليم المسلمين ليتربوا عليها ، وذلك للاقتداء به حتى يكون الأمر سنة .

وكما أفاد ترك الخلافة للشورى ما ذكر كذلك أفاد أمره تعالى له بالشورى في الآية المتقدمة أفاد انه تعالى انما أمره بها ليقتدى به المقتدون من أمته .

ولهذا ترك عمر بن الخطاب أمر الخلافة شورى ، ولكنه خشي أن تتفرق الآراء ، فجعل الشورى في الستة الذين هم أهل للخلافة .

حكم الشورى :

يفيد ظاهر الأمر الوجوب لقوله (وشاورهم) فهو يقتضي الوجوب في الشورى وحكى الرازي عن الشافعي انه حمل الأمر على الندب (١)

والمستفاد من كلام القاضي ابن العربي الاشبلي السنية حيث ذكر ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من انه قال في حديث الافك حين خطب (أشيروا علي في اناس أبنوا أهلي ، والله ما علمت على أهلي الا خيرا)(٢) . يعني بقوله أبنوهم غيروهم .

ونقل بعد ذلك ما قاله رجل من الأنصار ، من الأوس انا أعذرك منه ان كان من الأوس ضربنا عنقه ، وان كان من اخواننا من الخزرج أمرتنا فيه بأمرك .

وما أجاب به سعد بن عبادة سيد الخزرج ، حيث قال : لعمر الله لا تقتله ، ولا تقدر على قتله .

فقام أسيد بن حضير ورد على سعد بن عبادة .

حدث ما حدث من تثاور الحيين ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر وهو يخفضهم حتى سكنوا وخمدت المحاورة بينهم .

---

(١) تفسير الفخر (جـ ٩ ص ٦٧) .
(٢) ما ذكر ابن العربي انه ثبت هو ما في صحيح مسلم تحت رقم ٢١٣٤ .

ثم عقب على ذلك بقوله :

" وكانت هذه فائدة لمن بعده ليستن بالنبى صلى الله عليه وسلم فى المشاورة وعقب على ذلك بقصة الاستشارة فى أسرى بدر ، وهو لا يميل الى الوجوب لانه ختم ما نقله بقوله :

وهذا حديث صحيح ، وهو على النحو الأول أراد أن يختبر ما عندهم فى قرابتهم وحال أنفسهم فيما يفعل بهم . (١)

والواضح من الآية والوقائع وجوب الشورى .

الشورى الحديثة :

افتتن الناس بالنظام الديمقراطى ذهابا منهم الى أنه المثال المحتذى ، وبالغوا فى ادعاء أنه ليس فى الامكان أبدع مما كان .

ولا ندعى أن هذا النظام لم يأت بشىء لكن له معايب وأشدها معايب الاختيار للمرشحين لابداء الرأى فيهم وهم المنتخبون فهذه الأمة الكبرى الديمقراطية الولايات المتحدة تحت رحمة الاسرائيليين فرئيسها ان لم يرض عليه اليهود لا يتمكن من مقعد رئاسة الجمهورية .

فالديمقراطية الرائجة اليوم تعمل فيها المادة عملها لأن المرشحين لأن يكونوا أصوات الأمة يبذلون ما يبذلون من الأموال لأجل اكتساب الأصوات .

وتدخل المادة لابد أن يكون له تأثيره باقصاء من يستحق ونجاح من لا يوازيه وعلى كل فهذه الديمقراطية الحاضرة المأخوذ بها اليوم لها محاسنها ولها مساوئها ، ويختلف الحال باختلاف الأمم ، فالتى يكون مستواها الأخلاقى اسمى تقل فيها مساوئ الديمقراطية والتى تنحط تتدلى ديمقراطيتها .

---

(١) أحكام القرآن لابن العربى جـ ١ ص ٢٩٨ .

المشاورة الاسلامية :

ان المسلمين لو يأخذون بما ربى عليه الاسلام المسلمين في العصور الفضلى من المشاورة على أفضل الوجوه ، وبنوا عليها حياتهم وساروا بها على سنن التقدم لاستغنوا عما هم متشبثون به من التقليد للغرب .

والأدهى من الكل التقليد للمبادىء المنافية للاسلام والمناهضة لكل دين والبعيدة عن المشاورة الاسلامية مما سيؤدي بمن سار على ذلك الغرار أن يبقى في حيرة وتيه ولا يغير شيئا اختلاف الأسماء كالتقدمية أو ما شابهها فهي شيوعية في اسم معار لها ، وهي لا صلة لها بالاسلام .

ان روح ايجاد المشاورة الحقة التي دعا اليها الاسلام ونادى بها في كل ميدان هي في الاخلاص لاقامة المبادىء الاسلامية بأن تكون الغاية . ان هذه المبادىء تنفذ دون أية غاية من الغايات كما كان عليه سلفنا الصالح الذين قامت على كواهلهم المدنية الاسلامية ولا غاية لهم الا أن تكون كلمة الله هي العليا .

وبهذه الروح استطاع الاسلام أن ينفذ بمبادئه الى هذه المجموعة الاسلامية وتصبح أمة اسلامية .

ورجوعنا الى أصولنا يتوقف على تكييف تربيتنا من جميع وجوهها اجتماعية وغيرها على الروح الاسلامية لا في البرامج فحسب بل مع ذلك أن يكون المتولون للتربية متشبعين بالروح الاسلامية مؤمنين بأنها المرهم الوحيد لتقدمنا ونهضتنا وأملنا قوي في النهضة الاسلامية الحاضرة وان كانت في ارتجاج وتباعد فيما بينها أن تصبح وشعارها ما ركز عليه الاسلام من مبادىء تربوية ليعيش عليها المسلمون ويقيموا عليها كيانهم ، وأن يكون القرن الخامس عشر الذي سنستقبله عن قريب قرن النهضة الاسلامية الصادقة قد عاد المسلمون فيه الى سيرتهم الأولى واسترجعوا ما سلب منهم وتمكنوا من اعادة المدنية الاسلامية مشعة ناضرة .

. . . . . .

تكوين القـــيم :

اعتنى الاسلام فى مقدمة ما اعتنى به القيم وأراد ها أن تكون محركات للنهوض بالمسلمين حتى يأخذ وا فى أسباب التقدم وانشاء مدنية تفيد العالم بأسره والقيم مثلها فى المجتمـــع مثل القلب فكما ان القلب اذا اصلح صلح الجسد كله واذا فسد ، فسد الجسد كله ، كذلك القيم التى يتربى عليها الناس اذا صلحت صلحت الأمة كلها واذا فسدت فسدت الأمـــة كلها .

ومن هنا جعل الاسلام من أسس تربيته ايجاد قيم سامية ، يكون الأخذ بها مدعاة للنهوض والتقدم .

قاعدة القيم فى الاسلام :

قد يذهب الذاهبون الى أن الاسلام لم يضبط القيم وتركها سهلة ، فكل ما تسمى باسم القيمة جدير بأن يقبل وينتحل .

لا ريب أن الاسلام قد حدد للقيم حدا لا يدع النفوس حيرى أو متعطشة الى الوقـوف على اتجاهه وركزها على قاعدة ثابتة كقاعدة التمثال .

وتظفر بهذا الاتجاه فيما قرره الاسلام بكلمة الفصل ، وهو انه أبى فى صراحـــــة أن يكون المجتمع الاسلامى فى تبعية لغيره .

وتظفر بارادة السمو بالمجتمع الاسلامى من التبعية فى كل معانى الشريعة سواء منهـا ما كان من علاقة الانسان بربه ، وما كان منها راجعا الى الاجتماعيات ونراه فى هـــذا الصدد قد تناول الجزئيات التى يتغافل عنها الرأى بادىء ذى بدء ويظنها ســـــن المحقرات كالزينة واللباس ، ان تناول المحور وبناء على الاستقلال والاضطلاع بالأمـــر دون الارتكاز على الغير خوفا من أن تنبت النفوس على حب الاتكال وتذهب من العقـول موهبة الابتكار والانشاء ، (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهـــواء الذين لا يعلمون) .

والاستقلال الفكرى قد جسمه الاسلام وتتبعه حتى فى الخفيات لتعويد المجتمعـــات

الاسلامية على الخلق المبتكر والاحداث الجديد .

ولما حافظ المجتمع الاسلامي في عصوره الاولى على استقلاله الفكرى بهر الأنظار، وأتى بالمعجزات البينات بما تم على أيدى رجاله من الأعمال الخالدة ثم انه لما حاد انحنى عن طريقته المثلى وجرى وراء تقليد الأمم السابقة .. وانحط المستوى ، وأصبح يذهب الى الوراء وتسى أن يذهب الى الأمام ، اذا التقليد في الحقيقة نظرة الى الوراء تلهي عن الأمام وتعطل العقول .

والاسلام ها هنا قد كان دقيق النظرة متهيئا لأسباب الاثارة النفسية حتى تسير النفوس بمقادها .

ووراء هذا انه لا يريد أن يحدث فراغا بين الأمم وان يباعد بينها وان يحول بينها وبين الاتصال ، فما يتراءى في أن هذا الاستقلال في القيم ينزع الى الفراغ بين الأمم ليس بصحيح ، وانما يريد أن تكون للاسلام قوميته التي هي في آن واحد لها طابعها وروحها ولها وشائج تربط بين المسلمين وبين من يعايشونهم .

وحتى لا تذهب الظنون كل مذهب نقرر قاعدة أخرى من قواعد الاسلام في الاستقلال الذاتي للفرد المسلم ليتكل على نفسه اذا أمر المسلم أن يستغني بنفسه عن غيره فلا يسأل غيره شيئا ولو مناولة سوطه اذا سقط منه وهو على دابته ، مع انه أقام من الدين اخوة هي الاخوة الاسلامية ، وقررها في النفوس أشد تقرير .

وحينئذ المسلم أخو المسلم ولكنه غني بنفسه ليعيش لنفسه واخوانه .

وهل يعتقد أحد أن الاسلام لما أمر المسلم أن يكون غنيا بنفسه أمره بذلك لينفض يديه من اخوانه ، كلا ..

وكذلك هذا المجتمع الاسلامي غني بنفسه له استقلاله في مقوماته وهو مع ذلك مترابط متراص مع من يشاركه في الخلق من نفس واحدة .

.. .. ..

فاعلية الاسلام في تكوين القيم :

على المسلمين أن يفهموا روح الاسلام ويتصيدوا ما في الاسلام من آيات خلافته ، ويبحثوا عن ذراته التي تستطيع أن تفعل ما تفعله الذرة اليوم فتهز هذه العوالم التي كان يحسب انها خالدة لأنها في ارتباطها الاسلامي كانت في محاكاة حريصة لهذا البناء الشامخ الذي كل لبنة من لبناته لها من التأثير والفاعلية ما هو شديد التأثير ، بالغ المفعول فالاسلام الذي استطاع بفتحه أن ينشئ هذا العالم الاسلامي في استطاعته اليوم أن ينشئ عالما مثاليا في قيمه وأفكاره وكل ما هو من شروط الحضارة .

ان الاسلام مثل القوة الكهربائية التي تستطيع أن تكون مسيرة ، وأن تكون مدمرة وأن تحدث أي سبب يتصرف في المرافق الانسانية - وشرط هذا كله أن نتصرف في الاسلام التصرف الحكيم .

بين الأزمة في القيم وحلها :

وما نراه من أزمة القيم في المجتمع الاسلامي رغم المبادرة الفعلية الى الحل تبعا لأزمة الفكر يتطلب تضحية جريئة فالقيم التي اتضح انها لا تتمتع بالصلاحية ولا تستطيع ان تحلق معنا في الأجواء التي نريد التحليق فيها ، ما ورثناه من عصور القهقرى .

وفي طليعة ما يضحى به المغالطة النفسية اذ الكثير من آدابنا سببه الاشفاق من خرق المظاهر التي ترينا الحقائق على غير وجهها فانستنا وجه الحقيقة ، فلابد من حمل نفوسنا على النظر بدون مغالطة حتى نتبين في أية نقطة موقفنا ، وبلغنا من شأو غيرنا ليكون مقياسنا صحيحا .

وبذلك لا نعود الى النقطة التي تسلسلت بنا الى ما نشتكي منه ، تلك النقطة الشبيهة بعض الشبه بما نحن فيه اليوم ، حين أقبلت الدنيا على العالم الاسلامي تجر أذيالها فما زجته نفسية جعلته ينظر الى القيم بنظرة غريبة أثرت فيه يوما فيوما حتى أبغضت اليه العمل ، وصار بالصورة التي لا تنكر .

وهو ما تنبأ به الاسلام لهذا المجتمع اذا فتحت له الأرض فستصيبه التخمة اذا هو لم يحتم بالحمية اللازمة .

وهو ما دعا عمر بن الخطاب أن يتصلب كي تكون حياة المسلمين متدرجة كيلا يفقدوا قيمهم .

خطة الاسلام في القيم :

سار الاسلام في القيم شأنه في أصوله كلها من انه يتتبع طبيعة النشأة التي تنمو من ضعف الى قوة مثل صنيعه في الدولة اذ وضع أسسها فجاءت الخلافة تبنى على تلك الأصول ، وكذلك يبنى كل من توفرت له وسائل الانشاء في الاسلام .

كذلك القيم وضع الاسلام أصولها وترك لنا المجال فسيحا لاقامة الذي نريد اقامته على حسب ما أحب الاسلام ووضعه أيدينا ميزانا للقيم وهو ميزان الحق فنزن به القيم ، ونزن به أنفسنا ، فكلما استبان لنا أننا لسنا على شريعة من الحق رجعنا اليه وسلنا اليه ورضينا باحكامه ، وهذا هو الضمان لأن نعيش في هذا العالم المتحرك المتقلب المتبدد الأجواء ، وهو الجاذبية المسيطرة على القلوب حتى تتقارب وتتلاقى .

من مواقف الاسلام التربوية :

وقف الاسلام موقفا بعيد المدى لا تنتهي خطواته افساحا لنا في مجال الحضارة حتى لا نقف بها موقفا يجعلها ساكنة لا حراك لها أو تمشي القهقرى ويتجلى هذا الموقف في حادثة خاصة وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم أن لا يؤبروا النخل فلما لم يؤبروه لم يصلح فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم :(١)

"ان كان شيئا من أمر دنياكم فشأنكم به" .

---

(١) ونص الحديث عن عائشة رضي الله عنها :
"ان النبي صلى الله عليه وسلم سمع أصواتا فقال ما هذا الصوت قالوا : النخل يؤبرونها ، فقال : لو لم يفعلوا يصلح فلم يؤبروا عامئذ فصار شيصا فذكروا للنبي صلى الله عليه وسلم فقال ان كان شيئا من أمر دنياكم فشأنكم به وان كان من أمر دينكم فالي" . والشيص التمر الذي لا يشتد نواه (ابن ماجه جـ ٢ ص ٨٢٥) .

وفى هذا الحديث أمران :

أولهما : الافساح فى المجال الحضارى وذلك بأن تجتهد العقول فى التقدم بدون أن يقيدها قيد يقف بها فى أثناء سيرها الحتمى المواصلة ، والضرورى التقدم وهو ما تتطلبه الحياة فى عجلتها حتى لا تقف عن الدوران فاذا ما وقفت كان وقوفها معادلا لما هو ضرورى لها .

وثانيهما : اظهار أن التجربة أمر يطلع على خفايا الأمور فالقصد من أمره صلى الله عليه وسلم بعدم التأبير هو أن لا يأخذ المسلمون الأمور بدون تجربة ، وقد أبدى هذا الحديث موقفا له وزنه واعتباره وهو ان الأمور الدنيوية يتوقف تحقيقها على التجارب دون تلق لا يؤيده الواقع .

والتجربة لا تقتصر على الأمور العلمية من زراعية وغيرها بل هى محك النظر فى سائر القضايا وهى مدعاة لأن يكون المرء فى حياته غير أسير معلومات غير صحيحة كما هو الشأن فى العادات التى لا صلة لها بالحقائق وتورث التجربة ان المجرب لا يتلقى شيئا من المعلومات المادية والنظرية دون أن يعرضها على غربال الواقع ، والنظر الفاحص .

وتنبه ابن خلدون المؤرخ التونسى الى هذا المعنى فى التاريخ فوقف من وساوس الأغراب موقفا رائده العقل فحاء تاريخه كما قال :

" بأنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق "

ولو أن الطريقة الخلدونية اتبعت واتسعت مسالكها لكان للبحث العلمى ، والنظريات العلمية ما يحقق نتائج باهرة فى التقدم والابتداع .

أما والناس أهملوا التجربة وأهملوا عرض ما يعرض على النظر الفاحص فالطبع أن تكون العبدة والميل عن المنهج المؤدى الى الابتكار والابتداع ، والاعراض عن الأمر الثانى وهو التجربة وقع الناس فيه فى العصور التى انغلقت فيها الأفكار ، وما العصور الذهبية فهى قد أخذت بالأمرين اللذين أشار اليهما الحديث النبوى المتقدم .

هذان الأمران من أسس التربية الاجتماعية الاسلامية التى تنفتح بهما أنواع المعرفة والابتكار .